

روؤسكم جميعه مُحصى . فلا تخافوا فانكم افضل من عصافير كثيرة . . .
ثم ردّ الكتاب الى مكانه مقتوحاً ، ووقف هنيهة ، حائراً ، جامد النظر ،
مفكراً بجاني تلك الآية ، وبما دفع بدور الى التأمل فيها ، وقد تجهمت في
رأسه افكار ، وجالت في صدره عواطف ، وسارت في مخيلته اشباح لم يبددها
سوى صوت بدور تصبّح اباه . فسلما اين كانت ؟ فقالت :

- اقتنمت فرصة نوم والدتي ، فذهبت لحضور قدّاس الحوري يوسف .
ثم اقبلت على الامير ورفيقه تصبّحها فرداً عليها الصباح ، وقد بيت الامير
تلك الطمانينة تجول في مقلتها بمد ان فارقتها الجمود ، وعاد شي . من
الحياة الى خديها . فتعجب و سرّ بهذا الانقلاب .

رجع الحوري يوسف بعد الظهر لزيادة الست سعدى ، فرآها مطمئنة الظاهر ،
ساكنة الألم ، تتحدث مع الضيفين ببشاشة وارتياح . فجزّ نبضها ، ثم
رشها بشي . من الماء المقدّس كان يحمله في قنينة صغيرة لا تفارق عبه . وبعد ان
استراح قليلاً ، نهض كأنه تذكر شيئاً ، واجال يده بسرعة في جيوبه جميعها
ثم اخرج قطعة من قماش بنّي عليها صورة السيدة العذراء . فاناطها برقة الامير
بشير داعياً له بالتوفيق في كل مآتيه ، سائلاً السيدة ان تحوسه في جميع المخاطر
والمعارك . فقبل الامير يده شاكراً ، واجاب بانه يتكل على الله وعلى دعاء
الحوري في كل اعماله .

وبينا الجميع يتبادلون ارق العبارات ، واخلاس العواطف ، دخل فرحات
فجأة فقال :

- يا سيدي ، رأيت فارساً يصعد الوادي بسرعة ، ووجهته القصر .
وكانه من رجالنا في دير القمر . فانتبه الجميع صامتين ، وقال الامير :
- لا اراه الا رسولاً من اخي حسن يعلمنا بزحف العدو ويطلب حضورنا .
انتظره حتى يصل وادخل به عاجلاً .

وما هي دقائق حتى دخل الفارس . فقبل يد مولاة ، وسلّم على الحاضرين
وقال :

- يقول لك سيدي الامير حسن ان الامراء اللصين استدعوا الى المتن
الامير حسينا واخاه الامير سعد الدين ، فقدا عليهم رجالهما . وتجمهر الجميع
في سهل البقاع ، وهم اليوم نازلون بارض جديتنا ولا يبدا ان يزحفوا علينا قريبا .
فما العمل ؟ وما هي ارادة ساداتكم ؟

ولم يكن اتحاد الامراء اللصين بابناء الامير يوسف منتظرا بهذه السرعة ،
فبهت الجميع للخبر . وعاودت سمدي الاصفرار ، وبدت ظواهر الايجاس
على بدور . اما الامير فاطرق قليلا ثم قال :

- قل لحسن ان يرسل حالا الى حماتا الامير حيدر ملحم مع المعلم نقولا
ليستيلا المتنين بالوعد او بالوعيد . ثم مجهز مائتي رجل فيسيرهم بقيادة الامير
حيدر احمد على قلعة قب الياس . ثم يسير هو ياتي رجالنا الى البقاع . فوافيهم
انا رجال الامير جهجاه غدا صباحا الى نبع الباروك .

فخفي الرسول رأسه ، وقبل يد مولاه ، وعاد مسرعا من حيث أتى .
اما الامير جهجاه فاستدعى ديبا وغرا وامرهما بالمناداة في رجاله ، ووجوب
الاستعداد للسفر قبل الصباح . بينما كان الامير بشير يطمئن السمدي
وبدورا الى نتيجة ذلك الخبر ، مؤملا ان المعركة تسفر عن ظفر مبین لما يعهده
في رجاله من الشجاعة والصبر ، ولما يؤمله من وصول نجدة الجزار في القريب
الماجل وهي لا تقل عن الف رجل .

غير ان للقلب شعورا لا تعوى القياسات العقلية على اقتناعه . فلم تطمئن السمدي
سمدي الى شيء من ذلك ، ولكنها اظهرت رباطة جأش وتكلفت الابتسام ،
فجارتها بدور في تلك المظاهر .

وعند سحر اليوم الثاني غطت كنيسة الضيعة الصغيرة بالاميرين ورجالهما .
وقد اقبلوا مدججين بالسلاح ، معدين العدد ، ليترودوا معونة السيدة قبل
السفر . فدخلوا دروزا ونصارى يسمعون قداس الحوري يوسف ، ويقبلون
بركته ودعاؤه . وكانت بدور وراء الجميع مضطربة غرقى في تأملاتها ، ترفع
نظرها الى ايها بين النينة والقينة وتود لو كان بإمكانه عدم الذهاب الى تلك
المعركة . ثم تعود فتجهد عبثا بانارة عواطف الطمانينة . ولما انتهت الذبيحة الالهية

خرجوا الى الساحة وكلهم يدهن جبينه بالماء المقدس ، ثم يحتفر بين اظافره قليلاً من كلس الكنيسة فيضعه في عمامته .

وقبل الرحيل عرج الاميران والشيخ سلمم وفرحات مع الحوري يوسف على قصر بصدران فودّعوا الست سمدى التي لم تكن تكمن تمالك جفونها ان تطرف ، ولا لونها ان يصفر . ولكنها تجلّدت اذ رأته ابتها تتجلّد امامها حتى اذا خرج الراحلون استلمت الاثنتان للحزن واجهستا في البكاء .

كانت منخفضة البساروك ومرتفعاته تموج بالرجال ، وتتجاوب اصدارها حاملة سهيل الخيول ، وضجيج اهازيب الحرب ، حين اطلّ الامير بشير . فعلا الهتاف ، ولمت السيوف ، وأشرعت الرماح ، ودلاعبت الحراب فألقت نصالها دوائر برآقة تحت اشعة الشمس الصافية . ولم يكده يصل حتى سكنت الحركات ، وخفتت الاصوات ، واصطفّ الجميع حوله حلقات حلقات ، وعيونهم شاخصة الى وجهه ، وآذانهم مرهفة لسماح صوته . فحيّاهم متمنياً لهم خير صباح ، وخير نجاح في تلك المعركة . ثم كلمهم ببطء وقوة وصور امامهم الظفر ، فأثار في صدورهم الحملة والجرأة . واذ عرف ان الهوس بلغ منهم اقصى الدرجات ، شاء ان يدفعهم الى الهجوم ، فانشد على مسامعهم بلفظ فخم ، ونبرة حادة ، قصيدة الف انشادها في معاركه المتعددة ، والفوا ساجداً من فيه حتى حفظوها ، واستقرت آياتها في مخيلاتهم فاسكرتهم وكانت لهم بمثابة التعاويذ الدافعة الى الفوز والانتصار . قال ، وهم يرددون بعده كل بيت بمفرده :

هذا الرشاق ، امام السادة النجيب ،
 وشرب كأس المنايا ، في عجاج وغى ،
 ما همتي بيجنون النيد ذابلة ،
 وليس للمرء نغز في مراتبه ،
 عاهدت بيض الظبي اني اجرعها
 اني امرؤ لست من قوم ، اذا اقتلوا ،
 قومي ذور الشرف السامي ، قد رش ، وقد
 احب لي من عناق النيد في الحجب . ا
 السد لي من كزوس العيش بالهرب !
 بل همتي بشؤون الذبيل اليبس
 ان لم يرق ظا الهندية القضب
 مناهلاً من دم الاعناق واللبر
 رأوا الهزيمة منجاةً من المطر
 نسبت من آل مخزوم ؛ فيا نسي ا

سموت «بالحارث» المقدم ، نعم فتى أ
 و «قاسم» و «شهاب» طاب مجدهم .
 قومٌ حلالهم المغروف في ، سلم ،
 نعم الصدور ، اذا حلوا الصدور ، وهم
 ما حل عزيمتهم المشدود مؤتمهم
 سلي الرماح ، اذا لاعتها بيدي ،
 وسائلي البيض في كفي ، ولم هتكت
 بني شهاب لكم مني فتى أسد
 وان لي منكم أسداً ، اذا حملوا ،
 من كل اروع تحت الدرع تحبه
 ان هزاً في مفروق الاعداء اسره
 ويل لاعدائنا ، ان قال قائلنا
 تلقي الحوارج من آل الشهاب كما
 فجاهدوا يا بني الاعمام ، ان لكم
 تمكروا مجال الله ، واعتصروا ،

و «مالك» ، ثم «سعد» ، خير منتسب
 فسائل العرب عن جدي النبي ، وابي ا
 والصدق في كليم ، والفتك في حرب
 أسد العجاج ، واهل المنزل الرحب
 تحت الرماح العوالي عن علا الرتب
 كم قمر غفرت خديه في الترب !
 فروج ليث بجدر الدلص محتجب !
 يرى رشاق القنا برءا من العطب
 يرى صليل الظبي ضرباً من الطرب
 يرى قراع العدى نوعاً من اللعب
 يرى ضرام الوغى برداً لذي لهب
 يرى شراب الدما اشهى من الحبيب
 يفني الكتاب بين الكرم والطلب
 خلت الجبال اثنت كراً على الهضب
 بدرأ تقص في ثوب من المحب
 تفرقوا ، وغدوا بالذل والرعب
 هذي العداة ا فجدوا يا ذوي الحساب
 تلقي العفاريث رجماً من لظى الشهب
 عزاً تسمى على الاعجام والعرب
 ومن يكن واتقاً بافه لم يجبر !^(١)

* * *

(١) هذه القصيدة للامير عامر ابن الامير قيس الشاهي الازدي حاكم حوران بدايه (٨٦٧ - ٨٩٣ م) انشدها اذ كان يحارب النرامطة ، فيجج بما الهامة في صدور رجاله وكانوا ثمة عشر ألفاً فقاتلوا خمسين ألفاً من الاعداء . وقد روى التاريخ ان الامير بشير كان ينشدها في حروبه .

الفصل التاسع

مصائب جبريد

« حضرة العزيز غام حرسه السيدة

« لا تخافوا من يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس بل خافوا من
يقدر ان يهلك النفس والجسد في جهنم . أليس عصفوران يُباعان بفلس ومع
ذلك فواحد منهما لا يسقط على الارض بدون ايكم . وانتم فان شعر
رؤوسكم جميعه محصى . فلا تخافوا فانكم افضل من عصافير كثيرة »

« نعم ، ايا العزيز ، لا يسقط عصفور على الارض بدون ارادة ايدينا
الساوي ! ولولا هذا الايمان ، ولولا هذه الثقة بالعناية الالهية ، لما قرأت لي هذه
الطور ، بل لما سمعت عني سوى خبر انتحاري . لأنني احتملت ما ليس
للانسان الفرد طاقة باحتماله ، وصبرت على مكاره تعجز القوة البشرية وحدها
عن الصبر عليها .

« ابي قتيل ، يا غام ، وامي مريضة ، وانت شريد ، ورجالنا مبددون ،
واموالنا مهلة . ويطلب مني الصبر على ذلك . عجيبه حكمتك يا رب !
ولكن ليس لي اعتراض عليها ! ولست اخاف من قتل الجسد ، بعد ان شأت
وأنتك ان يتروّد القليل بالاسرار الالهية ، فيخلص نفسه !

« لم اكتب هذه الطور شاكية ولا متذمرة ، بل ضاق صدري عن عظم
حزني في ساعة ضعف ، فاحببت ان تشاطرنى اياه ، فتخفف بذلك عذابي . وجئت
عيناى حرقه وتلهفاً ، فأجبت ان استعين بدموحك ، فتعرض عن تقصيري . ثم
شعرت بمذربة التذرية الالهية ، فاحببت ان تجملها لي وافرة بصلواتك .
« فافقر لي هذه الثورة ، ودم سندا لمن لم يبق لها سندا سواك .

برور المحرقوس

عن قصر بذران في ٢٧ آذار ١٢٩٦

لم يَبْ غانم قراءة المکتوب حتى دِيرَ به فتلَمس ديوانه فانطرح عليه ، وانحلت اصابه عن الورقة فسقطت في ارض الترفقة . وبعد فترة جحظت فيها عيناه ، وانضبطت انفاسه ، حتى رأسه وتفجرت دموعه فجأة ، فاخذ ينشج نشج الطفل . ودموع فرحات تحيب دموعه فتمزيه ، وتريد حزنه في وقت واحد .

ثم تجلد والتفت الى فرحات ، فكفكف هذا عبراته ، واخذ يتصّ عليه بتهدج واسمى تفاصيل . تمثل الامير جهجاه . وغانم يمدق اليه وفي عينه امانر اللوعة ، وعلى وجهه اقصى مظاهر الحزن .

اخبره فرحات كيف صاروا من قصر بعذران الى مفاجأة العدر ، وكيف استقبلهم رجال الحزب في نبع الباروك . وكيف نشب القتال شديداً في قلعة قبّ الياس ، وكان قد قدم اليها الامير حسين بانف نقر فطالت المعركة واسفرت عن عدة قتلى منهم الشيخ نمر النكددي . وانه لولا رجال الامير حيدر احمد لدارت الدوائر على جيش الامير .

فقاطعه غانم متأثراً :

- وهذا اللعين الجزّار ، ألم يُرسل رجاله لنجدة الامير ؟

- بلى ولكن عسكره وصل متأثراً فحلّ في نبع الباروك . وفي اليوم الثاني نهض بهم اميرنا الى ارض المقيته فزلّ في يوارج . وارسل رجاله تنقل اخبار وصول العسكر من قرية الى قرية . فالتقوا الرعب في قلوب السكان ، حتى اخذوا يتقاعدون عن ابنا . الامير يوسف . وضعف حزب هؤلاء . فلم يروا من نجاة سوى الفرار ، فزروا الى نواحي طرابلس .

اما اميرنا فلم يكن ليرضى بهذا النصر البسيط بعد ان اعدت تلك المعدات . فما كان منه الا ان قام في طلبهم جاذا حتى هبط وطا الجوز في بلاد كسروان ، ومعه المحرم الامير جهجاه ، والشيخ بشير جنبلاط ، والمشايخ العاديات . ولكنه لم ير للاعداء من أثر ، ولم يشاهد من رجال حزبهم الا بعض المشايخ الدحاحة وكانوا قد انفصلوا عنهم والتجأوا الى الامير طالبين عفو . فمفا عنهم ، واكرمهم واقامهم كتية عنده وعند اخيه الامير حسن . واحيي تلك الليلة مع الامير

جبهاه والشيخ بشير يتباحثون في كيفية العمل لإدراك جيش العدو . وكانوا قد استبقوني قريباً منها لأمر يحصل فيحتاج الأمير الى خدمتي . فسمعتهم يقررون السير الى جسر الماملتين والوقوف عنده ، ثم اذاعة الخبر بان الجزائر لم يأذن للامير بتجاوز تلك النقطة الى ايلة طرابلس . وكان القصد من ذلك ان يمتد ابنا الامير يوسف بهذا الخبر ، فيظلم مع رجالهما مطئنين في البترون ، فيدهمهم السكر ليلاً .

وهكذا كان ا فأرسل الامير من الماملتين ، في اول الليل ، اخاه الامير حسن مع الامير حيدر احمد والشيخ بشير في عدد من السكر . الآن الاقدار عاكتنا فقلنا ، وكان في عمر الاميرين فسحة ، فهربا ملتجئين الى فاضل آغا رعد متسلم طرابلس . فانتقم الامير حسن ورجاله من هذه الماكرة بنهب البترون . اما السبب في ذاك الفشل فكان الشيخ اسعد النكدي الذي عرف بقيام عسكرنا ، فسبقه الى البترون ونبه الاميرين فهربا برجالهما .

فنظر غائم نظرة أسف وتحمر . اما فرحات فتابع بصوت مطئن :

- ولكن الامير لم يتراجع امام هذا الفشل بل اصدر امره الى اخيه ان يعاود السير وراء الفارين حتى يدركهم . فصار الامير حسن في عسكر الجزائر الى زغرنا ليحاصر طرابلس . وصدد الامير في عسكره الخاص الى اهدن . وظلت الحال مدة على هذا الشكل حتى لم ير الامير حلاً للامر ، واستبطأ الجزائر نتيجة تلك المطاردات . فتراجع السكر وعاد اميرنا مع المرحوم الامير جبهاه الى دير القمر ، بعد ان ابقى اخاه في جيبيل مستعداً لكل ما يحدث من الطوارئ .

- وابنا الامير يوسف ؟

- سارا من طرابلس الى الزاوية مع لمن بقي معها من الرجال ، وتولا في راس كيفا . وهناك حصل انشقاق جديد في عسكرهما ، فخذلها الامير قمدان والامير سلمان والشيخ حسن جنبلاط مع رجال حزبهم ، ورجعوا جميعاً الى البلاد تائبين ، واقاموا في بسكتا ريثما يرضى عنهم الامير . فتوسط اسرهم الشيخ بشير فعا اميرنا عنهم .

وبعد حملة جديدة قام بها الأمير حسن على بلاد الشمال ، حرب الاميران من راس كيفا الى بلاد عكار فعاد الامير الى جيبيل . وقد غاظت تلك الاعمال الامير بشير فضبط ارزاق الاعداء جميعها ، وهدم مساكن رجالهم ، وجمع اموالهم ، فارسل منها قسماً وافراً الى الجزائر ، وتصرف بالباقي .

ولكن حدث بعد ذلك امر لم يكن في الحبان . وهو ان خليل باشا والي طرابلس اراد ان يتشبه بالجزار . فانعم على احد عدويننا ، الامير سليم ، بولاية بلاد جيبيل . ولما احتج هذا مظهراً قوة الامير حسن ، ارسل معه الوالي عدداً من عسكره . وكذلك قدم لنجدته من عكار محمد المرعب برجاله ، ومن الضيئة الشيخ عباس الرعد . فبلغ عسكره نحو الستة آلاف .

فلما بلغ الخبر اميرنا اصدر امراً بالنفيذ العام . فلم يمض القليل حتى اجتمعت رجالنا ، فسار بهم الأمير حسن والامير جبهجاه الى ارض الفرطوش ، فالتقيا برجال الامير سليم . وانتشبت معركة هائلة قُتل فيها ستون نفرًا من الاعداء . ولم يسلم الباقون الا بالهرب الى طرابلس . فارسل حينذاك الامير بشير كتاباً الى خليل باشا يعرض له واقعة الحال ، شارحاً ان الجزائر غضبان على ابني الامير يوسف ، وانها لا قدرة لها على مقاومة الجزائر ، ملتسماً منه ان لا يقبلها عنده . ثم اوقف المسكر منتظراً الجواب .

— وماذا كان جواب خليل باشا ؟

— لم يجاب . بل جيش عسكراً جديداً وارسله مع الاميرين للانتقام من الامير حسن . ولكن نتيجة هذه المعركة لم تكن بافضل من نتائج المعارك السابقة . فانهمزم الاعداء هزيمة معية . وعلى اثر ذلك بلغ النفيذ من خليل باشا اشده . فارسل يطلب معاونة والده عبدالله باشا والي دمشق . فاجابه الى طلبه ، وكان الملا اسمعيل في خدمته اذ ذاك . فارسله في عسكر جواز الى البقاع حيث التقى برجال الاميرين فألفروا جيشاً عظيماً .

وكانت اخبار هذا الجيش تصل مطردة الى مسكرنا ، ويبالغ فيها الرايون . فنتهم من يقول خمسة آلاف ، ومنهم من يقول سبعة ، ومنهم من يصل بالعدد الى عشرة آلاف . حتى كادت الحشية تمتلك قلوب رجالنا ، وكاد

القواد يايون السيد الى ملتقى هذا الجيش ، لو لم يتدارك الامر المرحوم الامير
جهجاه - واحسرتي عليه ا - فيخطب في الجميع منشطاً ومشجعاً ، حتى دبت
الحلمة في القلوب ، والتمى الجليع زمام القيادة بين يديه ، فنهض بنفسه ،
وركب متقدماً المسكر الى البقاع مقرّ العذرة . وهناك كانت « حركة » مندرة
المشرومة .

وهنا توقّف المحدث قليلاً ليسح عينيه ، ويسكن صدره الجائش ، ويريح
صوته المتهدج . وكأنه اشفق على غانم من طول الانتظار ، فتابع :

لا شك انك سمعت بندرة . هي ارض عند قب الياس زحف اليها عسكر
المنلا اسماعيل من المرج حيث كان مخيماً . فالتقاه فيها عسكر الامير جهجاه
الذي كان سائراً من ارض المنيئة . وقد شا . القدر ان تسقى تلك الارض باغلي
دمائنا . فشبث فيها تلك المرّة الهائلة . وكان الامير جهجاه ، رحمه الله ، اراد ان
يشجع الرجال باعماله كما شجعهم باقواله ، فجعل يحمل على الصفوف الحملات
الصادقة ، وسيفه يتقل على الجالجم فتساقط ، ويهوي على الاكتاف فتترايل ،
ويضرب الآباط فيلمع من حنايا الضلوع . حتى خاف عليه الجميع من عاقبة تلك
الجرأة ، وعبثاً حاول من كانوا يحمون ظهره ، وانا في جملتهم ، ان يردّوه عن
تلك المناصرات . فلم يكن ليرعوي ، ولا ليرتد ، بل كان يهيج باعلى صوته
كلمات حفظها الجميع وطبقوها بالحرف وهي : « يجب ان نهزمهم قبل مغيب
الشمس ا »

وهكذا كان فهزمنام ! ولكن ليتنا لم نفعل ! فلربما كنا حفظنا حياة
قائدنا !

ثم التفت الى غانم فرآه ضابطاً انفاسه ، تجوم اللمعة حول جفونه فيردّها
مرغمة ، وتعلو الزفرة في صدره فيعيدها آتة ، وهو يحدّق الى مخاطبه منتظراً
تفاصيل المصيبة ، فتابع :

(لها بقية)

